

كتب الأخبار وأثرها في النقد العربي القديم " البيان والتبيين للجاحظ أنموذجا "

د. عمر بن طرية جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة - لاشك - إلى تبيان أهمية كتب الأدب والأخبار في الدرس النقدي، ومدى إسهامها في إثراء مجالات الفكر والثقافة والمعرفة الإنسانية، وما حوته من الزاد والتزود، والعمل على إكساب الدارس والمتلقي معرفة موسوعية، و ثقافة غزيرة في شتى صنوف الفنون و العلوم التي لا يمكن الاستغناء عنها، في الدراسة والبحث، وتتخذ الدراسة من كتاب البيان والتبيين، فضاء رحبا للتطبيق والإبانة عن المكانة الهامة التي تحتلها كتب الأخبار في الحياة العلمية والأدبية.

Abstract:

This study aims - no doubt - to illustrate the importance of literature and news in literary criticism, and the extent of their contribution to enrich the fields of thought and culture and human knowledge, and what Hute of intake and supply, and to give the student and the receiver encyclopedic knowledge, and heavy culture in various forms of the arts and sciences that can not be dispensed with, in the study and research, and to take the study of the book albayan walTTYabyin, plenty of space for the application and designation for the important place occupied News wrote in the scientific and literary life started.

توطئة:

كتب الأخبار - بالكثرة بمكان - لا يمكن الوقوف عندها ودصرها، وإنما سأكتفي بالإشارة إلى بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر، منها: الكامل للمبرد، والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه... وغيرها. والبيان والتبيين للجاحظ محط الدراسة ولكن قبل الخوض في استعراض بعض كتب الأخبار؛ تعريفاً ومضموناً ومنهجاً، وانتخاباً لنماذج منها. وجب الإشارة إلى الطريقة التي وصلت بها الأخبار والمرويات والأشعار وغيرها إلى الأجيال، ولو بشيء من الإيجاز والاختصار بقدر ما يسمح به المقام سعياً من أجل تسليط بعض الأضواء الكاشفة حول ما اصطلح عليه بالرواية الشفهية.

الرواية الشفهية ودورها في نقل التراث الإبداعي:

الأمة العربية الإسلامية - ولاربيب - خلفت رصيذا معرفيا ضخما ثميناً لا يستهان به تبلور بصفة خاصة في النتاج اللغوي والأدبي طيلة قرونها الأولى بداية من العصر الجاهلي حتى أوائل العصر العباسي كان هذا النتاج الغزير الثري يومئذ يصطبغ بصبغة السماع والرواية، أي المشافهة، ولم يكن محرراً، أو مدوناً في كتب كما هي الحال عند الفرس، واليونان، وغيرهما. يقول أحمد أمين: "... بل إنتاج أدبي، وليس محرراً في كتب كالتي دونها الفرس واليونان، وإنما هو شفوي - إلا في القليل النادر - يتناقله جيل عن جيل" (1) ومن هذا المنطلق يتبين أن التراث العربي الضخم ظل ردحا من الزمن يعتمد الرواية الشفهية والذاكرة، فثقافة العرب في أغلبها تعتمد عليهما، وقد " كانت كلها في جاهليتها ثقافة شفوية تعتمد على الذاكرة والرواية" (2) ومن ثمة لا يخفى على كل ذي بصر أن البوادي كانت وقتئذ منبعا أصيلاً، وموردا لا ينضب للثقافة العربية، فكان العلماء، والأدباء، واللغويون يتلقون اللغة والأدب على عرب البادية الأحمال الذين صفت قرائحهم، وصحت لغتهم، وكانوا حجر الأساس في ثقافة الأمة العربية وبناء صرحها. يقول أحمد أمين: "وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدر اللغة والأدب معا" (3) ولذلك كان للعرب أدب غزير ممتع، تمخض عنه رواية للغة، ورواية للأدب، مما جعل - في الأغلب الأعم - تداخل الروايتين؛ بمعنى قد ترد رواية للغة، ورواية للأدب، أو العكس، فالجاحظ له حديث رائع حول الأخذ والسماع عن الأعراب الفصحاء النابهين، وما امتاز به كلامهم من فوائد جمة ولذة مثيرة، وطرفة ممتعة، وأنه " ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا أنق، ولا أذ في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلماء البلغاء" (4) وعلى الرغم من أن العرب كانت تعتمد على الرواية و المشافهة والذاكرة، إلا أن ثقافتهم لم تكن بمنأى عن التحريف و التصحيف والضياع، ومن ثم أكدت المصادر على أن جانباً هائلاً من التراث المروي شفاهاً ضاع، إما بموت الرواة الحفاظ أو عامل التحريف والانتحال، أو سقط من يد الزمن، وتعرض لعواديته، ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء " ما انتهى إليكم مما قالت العرب

إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاؤكم علم و شعر كثير" (5) وفي هذا إشارة واضحة على أن سهما وافرا من التراث العربي قد ضاع واندثر. وعلى الرغم من ذلك، فإن الرواية الشفهية ظلت - عبر هذه الحقب - هي الأداة الناقلة للثقافة العربية خاصة في العصرين الجاهلي والإسلامي تتناقله الأجيال جيلا عن جيل. هذا التراث الذي تمت نقوله عن طريق الرواية - في الأغلب الأعم - كان صحيحا، والقليل فيه داخله الوضع والنحل من قبل بعض الرواة الذين انعدمت فيهم روح الثقة، فعمدوا إلى الكذب والتصحيف والتزوير، ورغم ذلك ظلت الرواية إلى بدايات القرن الثالث الهجري العمود الفقري الذي يستند عليه الأدب واللغة، إذ " ظل الأدب واللغة في العصر الإسلامي يعتمد على الحفظ والرواية حتى نهاية الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية، أين هم العلماء بالتدوين" (6) وفي مرحلة التدوين انبرى لعفيف من العلماء والأدباء واللغويين إلى عملية التمهين والغربلة، والتمهين للتمييز بين الصحيح والمنحول، واعتمدوا في ذلك على منهج أهل الحديث وطبقوه على المرويات الأدبية واللغوية. وقد تمثلت الرواية الشفهية في العصرين الجاهلي والإسلامي في رواية الشعر وحفظه واستظهاره، والغاية من ذلك إذاعته، وشيوعه بين الناس من جهة، وليشتهر قائله من جهة أخرى، كما كانت تعتمد على رواية اللغة والأخبار، والسير والأنساب التي كانت من مفاخر العرب، وعمود ثقافتها. ومهما يكن من أمر، فإن الرواية في الأدب القديم ضاربة بجذورها في الأعماق قديمة قدم الإنسان الجاهلي، فالجاهليون كانوا يعتمدون على الحفظ والذاكرة، فيتناقلون الأشعار، والقصص، والأمثال، والنوادر، والملح وغيرها فيما بينهم.

ومن هنا فالرواية كانت عمدة من أعمدة الثقافة العربية، ولولاها ما كان للأدب خاصة، وللعلوم عامة أن تعرف وتذاع بهذه الكيفية، وتصل إلى الأجيال اللاحقة، كما يرجع إليها السبب في إقامة أصول التراث وصيانته، والعمل على وفرته ونموه، وهاهو المسعودي يوضح ما لعلم الأخبار من أهمية في الحفاظ على العلوم والمعارف فيقول: " ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم وضاع آخره... وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستعذب موقعه الأحقق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصي والعامي، ويميل إلى رواياته العربي والعجمي" (7)

وقصارى القول: كان للرواة الفضل كل الفضل على الأدب العربي؛ لأنهم اخذوا على عاتقهم رواية الشعر، والأخبار، والأنساب، والحديث، واللغة، وغيرها، فبذلك حافظوا على التراث من الضياع، وأنقذوه من يد الزمان، وجنبوه بطش الدهر وعواديته. ليس هذا فحسب، وإنما كان للرواة اليد الطولى، والباع الأوفر، والأثر البالغ، والبصمة العميقة في الحفاظ على البقية المتبقية من تراث الأمة، ولولاهم ما وصلنا عن الأدب العربي وفنونه، وأعلامه شيء.

تعريفها:

كتب الأخبار مصنفات تعنى بإيراد أخبار الشعراء و الأدباء و الخلفاء ؛ توضيحا لأشعار الشعراء، وفنون الأدباء، ومواقف الخلفاء ومجالسهم، ونواديهم، وملحهم، كما تتعرض إلى الجوانب اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، شرحا وتبيانا للأشعار، و القصص، والنوادر والطرف.

وكتب الأخبار – ولا ريب- ضاربة بجذورها في القدم، وتروي كتب التراجم والطبقات أن أول كتاب صنف في الأخبار جمعه الراوي "الفقعي" في أواخر القرن الثاني الهجري، ولكنه ضاع كما ذكر ذلك صاحب الفهرست، وعنوان الكتاب " مآثر بني أسد وأشعارها" (8). من هنا يتبين أن كتب الأخبار قديمة في الأدب العربي، إذ تحدد زمنها بالقرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي).

مضمونها:

كتب الأخبار تضم بين دفتيها ضروبا متنوعة من الثقافة و المعرفة، فهي كتب غير متخصصة، ولا تشتمل على فن من الفنون، وإنما تعالج فنونا شتى في مجالات مختلفة ؛ فهي تغذي العقل، وتنمي الفكر، وترهف الحس. ثم بعد ذلك ذاع صيتها وشاعت في أصقاع المعمورة. وصدق ابن قتيبة حيث قال: "من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليوسع في العلوم" (9) وهذا القول ينعكس على كتب الأخبار ومضامينها، لأنها تسعى إلى إكساب القارئ ثقافة موسوعية، وعلما غزيرا، ويتجلى ذلك في قوله: "ومن أراد إن يكون أديبا فليوسع في العلوم" (10) ومن ثمة فكتب الأخبار تعطي المتلقي من كل علم طرفا كما قال ابن خلدون في تعريف كلمة الأدب: "الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف." (11 11)

أما عن أسلوبها وطريقة عرضها، فهي تجنح إلى الاستطراد، والاستطراد هو الانتقال من موضوع إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى، محدثة بذلك التنوع في ضروب المعرفة، كما أن هذه الطريقة تمتزج بالدعابة، والفكاهة، مما يجعل المتلقي يقبل عليها بشغف ونهم، ولا يملها رغم توسعها وإسهابها.

و المنهج السائد في كتب الأخبار يجمع بين الجد والهزل، و يجنح إلى الاستطراد أثناء طرح الموضوعات، ومعالجتها.

وأصحاب هذه المصنفات قصدوا إلى هذا المنهج عن قصد ودراية، وليس جهلا منهم بأصول الكتابة، وضروب التأليف، والكثير منهم سوغ وقدم الأسباب التي دفعت به إلى انتهاج الاستطراد، والجمع بين الجد والهزل، و القاسم المشترك بينهم في نقطتين هامتين:

أ- التنوع في المعرفة، والغرض منه إكساب المتلقي ثقافة موسوعية، وتكوين دائرة معارف علمية وأدبية في شتى ضروب الإبداع.

ب-الجمع بين الجد والهزل؛ الغرض منه الترويح على المتلقي، وإبعاد شبح الملل والسأم عنه، حتى يتمكن من المتابعة المستمرة؛ والاستفادة القصوى من هذه الكتب النفيسة، وفي هذا السياق يقول الجاحظ: "فإن مللت الكتاب واستثقلت القراءة، فأنت حينئذ أعذر، وما عندي لك من الحيلة إلا أن أظهره لك في أحسن صورة، وأقلبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلا إلى الشعر الصحيح، ولا تخرج من الشعر الصحيح الطريف إلا إلى المثل السائر الواقع..."⁽¹²⁾ وإلى مثل هذا أشار المبرد في كتابه الكامل حيث يقول: " نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً؛ لتكون فيه استراحة للقارئ، وانتقال ينفي الملل، ليحسن موقع الاستطراف، وتخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس " ⁽¹³⁾

البيان والتبيين:

1_ التعريف به:

أجمع الدارسون على أن كتاب البيان والتبيين أصل من أصول الأدب وركن من أركانه التي يركز عليها، ولذلك عده ابن خلدون واحداً من السدواوين الأربعة العظام التي سمع عنه من شيوخه.

البيان والتبيين كتاب أدب يضم بين دفتيه تراثاً غزيراً نفيساً تمثل في الشعر والنثر، والخطب والوصايا، والحكم، والأمثال و الطرف والملح، والأخبار، وعلوم البلاغة وغيرها. ألفه الجاحظ في آخر حياته، وقد تكالبت عليه الأوجاع، والأسقام والآلام. وعلى الرغم من هذه الأمراض واصل الجاحظ تأليف كتابه الذي جاء محصلة لأرائه الفكرية والأدبية والبيانية دلت على مراس طويــــــــــــل ، ونظرات عميقة، وحنكة بالغة في فن القول والإبداع. و " هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ " ⁽¹⁴⁾ قال المسعودي في معرض حديثه عن كتاب البيان و التبيين: "إنه جمع فيه بين المنثور و المنظوم و غرر الأشعار، و مستحسن الأخبار، و بليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر عليه لاكتفى به " ^(15 15)

2_ الباعث على تأليفه:

أرجع لفيث من الدارسين السبب الرئيسي الباعث على تأليف البيان و التبيين إلى الرد على النزعة الشعوبية التي تفشت في عصر الجاحظ، حين اشتط الشعوبيون في المفاخرة بأمجادهم، والتطاول على العرب، ورميهم بالتخلف والانحطاط، ناكرين نعم الأمة العربية عليهم، فأنبرى لهم الجاحظ يسفه أعلامهم ويشجب أقوالهم، ويحط من أمجادهم وحضارتهم، مشيداً بالعرب و صفاتهم، و تمجيدهم، والإبانة عن تفوقهم، وإبراز عاداتهم وتقاليدهم المعروفة عنهم، وتصدى الجاحظ لكذب مزاعمهم، ورد سمومهم ومكائدهم.

والجاحظ أثناء دحض مقالة هؤلاء وصددهم وإبطال سمومهم، ينظر إليهم نظرة عاتية شديدة، حانقة مشحونة بألوان الانفعال، وضروب الغضب، وفي ذلك يقول: "اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لغرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل عتماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منه طول جثوم الدسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغلbian تلك المراحل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطربة" (16)

ومن هنا يتضح أن الجاحظ عاصر حملة شعواء على العرب وأدابهم وعاداتهم ومفاخرهم من قبل الشعوبيين الذين أرادوا الانتقاص من شأن العرب، والحط من منزلتهم، فلم يجد الجاحظ مندوحة إلا أن يخط هذا الكتاب ردا عليهم، وانتصارا للعرب وحضارتهم. فكان هذا الكتاب ثمرة للصراع الشعوبي العربي.

3-مضمون الكتاب:

و الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مولع بفن القول، ووجوه البلاغة و الفصاحة، متبعاً الألفاظ، ومخارج الحروف، يميز عيوب الناس أثناء النطق كاللثغة، و اللكنة و الحصر * والعبي * لذلك يفتح كتابه بالتعوذ من مشرور العبي و الحصر، و يرى أن الصمت عصمة أمامها. قال الجاحظ: "نعوذ بك من فتنة القول...كما نعوذ بك من العبي و الحصر" (17) وأفرد الجاحظ بابا واسعاً للخطابة، وأفاض فيه، لأنها كانت في عصره رمزا للفصاحة و البلاغة وطريقة من طرائق الجدل و علم الكلام. و أبان الجاحظ أثناء حديثه عن الخطابة، قواعدها، وطرائقها وأصولها. أشار إلى شيوخها و أعلامها، ووضع عيوبها ودعا إلى تجنبها: (كاللثغة، وتنافر الحروف وغيرها).

وتعرض إلى صفات الخطيب الناجح، ونوه بمنزلته في قومه. ثم جنح إلى علم البلاغة والبيان فتحدث عن اللثغة، واللحن ومخارج الحروف، و الإيجاز، والبيان، والإطناب، وغيرها، والمتصفح لها يجدها مبنوثة عبر صفحات الكتاب و أجزاءه. كما عرض نماذج كثيرة من الشعر والأمثال والحكم، وكان يتعرض للمقطوعات الشعرية بالنقد والتحليل، فكان ناقدا بصيرا بفضول القول و طرائقه. كما تناول الجاحظ في كتابه قضايا نقدية كانت دائرة الرحي على أيامه كثنائية اللفظ و المعنى، و القديم والحديث، و السرقات، و المذهب البديعي، وكان في كل ذلك له صولات وجولات تنبي عن تمكن و إمام في المجالات النقدية و البلاغية و الأدبية.

تعرض الجاحظ في الكتاب أيضا إلى القصص والأخبار والرواية، كأخبار الخطباء والشعراء والقصص وغيرها. أما الطرف فلا تكاد العين تخطئها، فالجاحظ جامع في تصانيفه برمتها بين الجد و الهزل، و من ثم اصطبغت كتبه بروح الدعابة والفكاهة. مما أضفى عليها صنعة نادرة. وباختصار يمكن عرض الكتاب على النحو التالي:

- 1_ البيان والبلاغة.
- 2_ القواعد البلاغية.
- 3_ الشعر.
- 4_ الخطابة والخطباء.
- 5_ الأسجاع.
- 6_ الرسائل والوصايا.
- 7_ القصص والأخبار.
- 8_ الحكم والأمثال.
- 9_ أخبار الحمقى ونوادرهم.

ولقد أوضح أحمد أمين أثناء حديثه عن البيان والتبيين موجزا أهم المضامين فقال هو " مختارات من الأدب، من آية قرآنية أو حديث، أو شعر، أو حكمة، أو خطبة ممزوجة بماله من آراء في مسائل عدة" (18) وأما ما يتعلق بمضمون الكتاب ومحتواه الذي عرضته بإيجاز ولم تكن لي فيه إلا نظرة الطائر كما يقال محاولة بسيطة للإمام بأهم الموضوعات التي طرقها الجاحظ في البيان والتبيين.

بعد ما تعرضنا إلى مضمون الكتاب بإيجاز وإيضاح الرؤية حول أهم القضايا المطروحة فيه، وجب الآن التعرض إلى منهج الجاحظ الذي انتهجه في هذا السفر العظيم.

منهج الكتاب:

بعد ما تعرضنا إلى مضمون الكتاب بإيجاز وإيضاح الرؤية حول أهم القضايا المطروحة فيه، وجب الآن التعرض إلى منهج الجاحظ الذي انتهجه في هذا السفر العظيم.

كما أن طريقة الجاحظ في التأليف مشهورة، وهي عنوان بارز لتأليفه، فهو غزير في معرفته يسوق من كل بستان صنفا، ومن كل زهرة نوعا، ومن كل فاكهة ضربا، فيخرج ألوانها الزاهية من المعارف المتنوعة المتباينة المتعددة يتخللها خروج عن الموضوع عن قصد منه أو عن غير قصد وعرفت هذه الطريقة المتبعة في عملية التأليف لدى الجاحظ بالطريقة الاستطرادية. والاستطراد هو: "الخروج من موضوع البحث إلى موضوعات أخرى بعيدة، أو قريبة منه، هذا ما يعنى بالاستطراد عند الحديث عن منهج الجاحظ في التفكير؛ فالجاحظ لا يحافظ على وحدة الموضوع، بل يقحم فيه موضوعات جانبية، وغريبة" (19) وهكذا يبدو الكتاب معرضا متنوع النتائج مختلف الألوان والأزياء، فكتاب البيان والتبيين موضوعه الرئيس البيان، إلا أن الجاحظ يتطرق إلى موضوعات متعددة ومتباينة منها الخطابة وأصولها وأنواعها وأعلامها، ومنها الكلام والتاريخ والحديث، ومنها الأخبار والطرف، و هلم جرا.

ومن هنا يتبين لكل من أمعن النظر في كتاب البيان والتبيين للجاحظ باحثا عن منهجية وطريقة تأليفه، لا يمكنه الوقوف على منهج بين اتخذها الجاحظ، إنما يلحظ أن الجاحظ يطوف

به هنا وهناك، ويبحر به في عوالم مختلفة ومتعددة، ويصطدم أثناء الإبحار بمفاجآت ومفاجآت تخرجه في نهاية الرحلة محملاً بثقافة واسعة وألوان من المعرفة الموسوعية.

فمنهج الجاحظ في البيان و التبيين لا حدود له، ولا معالم يهتدى بها، وإنما غلب عليه الاستطراد والخروج من موضوع إلى آخر عن عمد أو دون عمد. ومن هنا كان الكتاب أشبه ببستان حافل بضروب المعرفة الأدبية. لاشك أن هذا المنهج الذي سلكه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خاصة، ومؤلفاته عامة انقسم حوله الدارسون إلى فئتين، فئة اعتبرت طريقة الجاحظ من العيوب التي يؤخذ عليها، وأخرى ترى أنها طريقة مثلى وفريدة تعمدها الجاحظ، وله في ذلك مسوغاته المعقولة. فالفئة الأولى اعتبرت منهج الجاحظ في التأليف ضرباً من الفوضى والتمزق في طرح القضايا ومعالجتها، مما أدى إلى انعدام الوحدة الفكرية والموضوعية.

يشير أحمد أمين إلى هذه القضية، فيقول: " وفي كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط واستطراد لا يحد " (20) بل يذهب إلى أكثر من هذا، ويحمل الجاحظ مسؤولية الفوضى على حد زعمه الموجودة في كتب الجاحظ وانتقالها إلى المصنفات التي جاءت من بعده فيقول: "والحق أن الجاحظ مسؤول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي...فالمبرد تلميذه تأثر به في تأليفه " (21) وفئة أخرى ترى خلاف ذلك، وتعتبر منهج الجاحظ في طريقة التأليف منهجاً حقق الهدف والغاية، فهذا الدكتور عبد المنعم خفاجي يدحض مقالة أحمد أمين الذي وصف أسلوب الجاحظ في البيان بالأسلوب الفوضوي وتحمله مسؤولية ذلك في المصنفات التي جاءت من بعده، إذ يقول: " وهذا خطأ في أساسه، فالجاحظ إنما ألف الكتاب ليكون موسوعة في الأدب والبيان، لا ليكون كتاباً منهجياً محدوداً " (22) من خلال هذه المقولة يوضح د. عبد المنعم خفاجي الغاية من الأسلوب الذي اتبعه الجاحظ في البيان والتبيين والمتمثل في أن الجاحظ أراد أن يزود القارئ بثقافة موسوعية متشعبة الروافد، متنوعة المعارف، وأن يأخذ من كل علم بطرف، لا يجعل منه قارئاً محدوداً.

ليس هذا فحسب، وإنما يذهب الدكتور عبد المنعم خفاجي إلى أبعد من ذلك ليزيد منهج الجاحظ توضيحاً، فيقول: " وليس الاستطراد فيه إغفالاً للموضوع، ولا نسياناً لأصل البحث، و لصميم الفكر الأدبي في الكتاب " (23)

وذهب المسعودي يسوغ منهج الجاحظ في كتابه البيان و التبيين حين يقول: " وكان إذا تخوف ملل القارئ، وسأمة السامع، خرج من جد إلي هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة." (24)

وبعد هذه الآراء المتباينة حول منهج الجاحظ في التأليف، نجد هذا الأخير يتحدث بنفسه عن هذا المنهج ويسوغ اختياره دون غيره من المناهج إذ يقول: " فإنني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها." (25) ويقول أيضاً: " وإذا كانت

الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا وافرا." (26)

خلاصة القول:

إنه مهما قيل عن طريقة الجاحظ ومنهجه في التأليف والكتابة في البيان والتبيين خاصة، ومؤلفاته عامة فإن البيان والتبيين يبقى من الكتب النفيسة، التي لا يمكن لأي باحث، أو دارس الاستغناء عنها، والجاحظ في حقيقة الأمر لا يجهل طبيعة التأليف ومنهجه، بل إن الجاحظ عمد إلى هذه الطريقة قاصدا، وحجته في ذلك أنه أراد إبعاد شيخ الملل و الضجر عن القارئ من جهة، وإكسابه ثقافة موسوعية متنوعة الأفنان والألوان، ثقافة يركز عليها في أبحاثه ودراساته على مختلف مصباتها ومشاربها من جهة أخرى. وقد شبه الدكتور عمر الدقاق كتاب البيان والتبيين بالمنجم الغني بالمعادن الثمينة فقال و" كان الكتاب أشبه بمنجم غني بالمعادن الثمينة التي تأثرت وتداخل بعضها في بعض فعز على ناشدها الاهتداء ببسر إليها." (27)

نماذج مختارة من الكتاب:

بعد الانتهاء من الحديث عن منهج الكتاب، والإبانة عن بعض المواقف حول منهج الجاحظ في الكتابة، تم اختيار نماذج للتمثيل لا الحصر.

النموذج الأول: في باب البيان

يقول الجاحظ: " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضجر حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع وإنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع." (28)

(28) يستشف من هذا النموذج أن البيان عند الجاحظ هو ما كشف المعنى ووضحه. ثم يلخص القول في نهاية الفقرة مبينا معنى البيان فيراه الفهم والإفهام. بأي وسيلة من الوسائل استطاعت الإيضاح، وإيصال المعنى للقارئ فذاك هو عين البيان.

النموذج الثاني:

باب البلاغة

قال الجاحظ: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله. و صلي الله على سيدنا محمد خاصة و على الأنبياء عامة. أخبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان و حدثني محمد بن أبان - و لا أدري كاتب من كان - قال قيل للفارسي: ما البلاغة ؟ قال: " معرفة الفصل من الوصل "

قال: لليوناني ما البلاغة ؟

قال: " تصحيح الأقسام و اختيار الكلام "

قال: للهندي ما البلاغة ؟

قال: " وضوح الدلالة و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة ". و قال بعض أهل الهند جماع البلاغة البصر بالحجة و المعرفة بموضع الفرصة. ثم قال و من البصر بالحجة و المعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة و ربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك و أحق بالظفر. قال: وقال مرة جماع البلاغة التماس حسن المواقع و المعرفة بساعات القول، و قلة الحروف بما التبس من المعاني أو غمض و بما شرد عليك من اللفظ أو تعذر. ثم قال: وزين ذلك كله و بهاؤه، و حلاوته و سناؤه. أن تكون الشمائل موزونة. والألفاظ معدلة، و اللهجة نقية. فإن جامع ذلك الس - ن و الس - مت و الجمال و طول الصمت فقد تم كل التمام و كمل كل الكمال. (29)

النموذج الثالث: من باب الخطابة

قال الجاحظ: " ومن خطباء إياد (قس بن ساعدة) و هو من الذي قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه و سلم: " رأيتك بسوق عكاظ على جمل أحمر و هو يقول: " أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا و عوا. من عاش مات، و من مات فات، و كل ما هو آت آت. " وهو القائل في هذه: " آيات محكمات: مطر و نبات، و آباء وأمهات، و ذاهب و آت، و نجوم تمور، و بحور لا تغور. و سقف مرفوع، و مهاد موضوع. و ليل داج، و سماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون و لا يرجعون، أرضوا فآقأموا، أم حبسوا فناموا " و هو القائل: " يا معشر إياد، أين ثمود و عاد و أين الآباء و الأجداد. أين المعروف الذي لم يشكر، و الظلم الذي لم ينكر. أقسم قسّ قسما بالله أن ديننا هو أرضى له من دينكم هذا " وأنشدوا له هذه:

- في الذاهبين الأوليين * من القرون لنا بصائر
لمنا رأيت مواردنا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحسوها * تمضي الأكابر منهم والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا * يبقى من الباقيين غابا
أيقنت أنني لا محالة * حيث صار القوم صائرا (30)

نماذج نقدية

1- اللفظ والمعنى:

يقول الجاحظ: " ثم أعلم - حفظك الله - إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية ، ممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة" (31) فالجاحظ يرى أن المعاني ليست محدودة، فهي ممتدة عبر مساحات لا يمكن حصرها فهي تمتاز بالاتساع خلاف للألفاظ التي تتنسم بالمحدودية والضيق، وأن الألفاظ لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الدربة و أعمال الجهد والتمرس.

2_ المطبوعون على الشعر من المولدين:

ويقول الجاحظ في معرض حديثه عن الشعراء المطبوعين من المولدين: " والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن عيينة وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل، وسليمان الخاسر، وخلف بن خليفة، وأبان بن عبد الحميد اللاهقي أولى بالطبع من هؤلاء وبشار أطبعهم كلهم" (32) نلاحظ من خلال هذا الرأي أن الجاحظ من النقاد الذين أنصفوا الشعراء المحدثين من المولدين، ولم يتعصب للقدماء على حسابهم، لأن الجاحظ لا يقيس الإبداع بالتقدم أو التأخر في الزمان، وإنما بالجودة و حسن النظم، هذا من جهة، ويقدم الطبع عن الصنعة والتكلف من جهة أخرى.

3 _ التنقيح والتجويد:

قال الجاحظ: " وكذلك كل من يوجد في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قـاله و أعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة. (33) من خلال ما سبق يتبين أن الجاحظ يرى أن التدقيق وإعادة النظر في العملية الإبداعية يعتبر مطية إلى الجودة والاستواء. فمحك الإبداع لدى الجاحظ يكمن في الجودة، ليس الكثرة كما قال ابن سلام وغيره.

4 _ أجود الشعر:

قال الجاحظ: " وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" (34) فهو يذهب في هذه المقولة إلى أن الشعر الجيد هو ما كانت ألفاظه محبوكة، مسبوكة، وما تلاحمت أجزائه، وأخذ بعضها برقاب بعض، وسهلت مخارجه وبعد عن التعقيد ، والتكلف. ومن خلال ما ذهب إليه الجاحظ يمكن القول: بأن الجاحظ كان سابقا لي ما اصطلح عليه في العصر الحديث بالوحدة العضوية التي قال بها الرومانسيون و يتجلى ذلك في قوله: "...قد أفرغ إفراغا واحدا ،وسبك سبكا واحدا" (35)

5_ صفات الكلام و طبقاته:

قال الجاحظ: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون عربيا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات" (36) يجلي الجاحظ من خلال هذا الرأي صفات وذوائص اللفظ الفصح البليغ، فهو كل لفظ جانب العامي، والسوقي، والساقط، وابتعد عن الغامض والوحشي هذا من جهة، ويرى أن الوحشي من الكلام لا يفهمه إلا الوحشي من الناس، والسوقي لا يفهمه أيضا إلا السوقي، لأن كلام الناس على طبقات، والناس أنفسهم طبقات.

6_ رأيه في طريقة الكتاب ومدحه لهم:

قال الجاحظ: "أما أنا فلم أرقط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا" (37) مذهب الجاحظ في الكتابة: الوضوح والسهولة والابتعاد عن التوعر والوحشي من الألفاظ، والساقط السوقي، وبهذه الخصائص جعل محكا لمعرفة الطريقة المثلى في البلاغة لدى الكتاب.

7_ الطبع والتكلف:

قال الجاحظ في معرض حديثه عن الطبع و التكلف، مشيرا إلى أن العرب غلب عليهم الطبع، وكانوا بمنأى عن التكلف والتصنع والتزلف. فقال: " وكانوا أميين لا يكتبون، مطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع: وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر" (38)

8_ المعنى الشريف، واللفظ البليغ:

يعتبر الجاحظ من النقاد الأوائل الذين قالوا بنظرية المعنى الشريف، واللفظ البليغ ثم تأثر به من جاء بعده. وفي هذه النظرية يوضح الجاحظ بأن المعنى واللفظ عنصران متلازمان، ولا يمكن الفصل بينهما. ويرى أيضا أن الكلام كلما ابتعد عن التكلف، والتنافر، والاختلال، كلما كان له فعله في النفوس، وأثره في القلوب. يقول: "وأحسن الكلام ما كان قليلا يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع صنيع الغيث في التربة الكريمة" (39) مما سبق من آراء يتبين لنا أن الجاحظ استطاع من خلال كتابه البيان والتبيين أن يستغرق أغلب القضايا النقدية التي شكلت مدار الدرس النقدي في النقد العربي، وكان الجاحظ يمثل حجر الأساس فيها، وحق له أن يسمى زعيم البيان والنقد العربيين.

قيمة الكتاب وآراء الدارسين فيه:

لا شك وأن كتاب البيان والتبيين من أجل المصادر الأدبية والنقدية والبلاغية في الساحة الفكرية الثقافية ويعد دائرة معارف تزرخ بألوان المعرفة المتنوعة تعطيك من كل علم طرفاً، ومن كل بستان زهرة، فهو ينبوع يتفجر أدباً، وبلاغة، وشعراً، وأخباراً، وسيراً، وقصصاً، ونوادر، وخطباً، ووصايا ورسائل وأسجاعاً، وكل هذه الألوان عرضها الجاحظ بأسلوب شيق جذاب يدفع القارئ إلى المتابعة والاستزادة منه. ومهما أخذ عن الكتاب من عيوب في المنهج خاصة، إلا أن ذلك لن ينقص من قيمته وعطائه الفيض الذي لا ينضب قال عنه الدكتور خفاجي: "والكتاب في مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة والفكر الذاتي، وقد خدم الجاحظ به قضية البيان خدمة لا تقدر بقيمة"⁽⁴⁰⁾. وقال أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن كتب البلاغة و: "كان أكبرها كتاب البيان والتبيين لأبي عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء"⁽⁴¹⁾. وقال عبد السلام هارون محقق الكتاب مبيناً عن أهميته ومدى استفادة الدارسين من عطائه: "إنه ليس يوجد أديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب، أو لم يفد منه، وقلما نجد أديباً من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب"⁽⁴²⁾

إن كتاب البيان والتبيين مهما قيل عنه سوف يبقى شامخاً كالطود الأشم يضاهي الثريا، ومعينا يتدفق بالعلم في كل حين وأوان على الرغم من قدم العهد، وطول الأمد. فصاحب الكتاب تكالبت عليه الأسقام والأوجاع والألام، وظل يكابدها إلى أن فارق الدنيا تاركاً وراءه عصارة فكره على الورق، مـحصلة لأتعب سنين سلخها من عمره في فضاء البحث و التنقيب، والتأليف والإبداع، فمن كان هذا ديدانه ودأبه، قمين أن ينبت في قلوب الآخرين. إذا رحل الجاحظ عن الدنيا، وبلي الجسد، وبقي علمه وفكره، وأدبه شهود عيان خلدوا ذكره و ذكراه على مر الأجيال والحقب.

الخاتمة:

- و من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى بعض النتائج نوجزها في النقاط التالية:
- 1- تمتاز كتب الأخبار بالشمول والتنوع في ضروب الثقافة والمعرفة، ومن ثمة اصطلح على تسميتها بكتب الأخبار، أو كتب الثقافة العامة، أو كتب الأدب، أو كتب المحاضرات.
 - 2- كتب الأخبار منهل لا ينضب ينهل منه الباحثون و الدارسون في مباحثهم و دراساتهم الأدبية، واللغوية، والبلاغية، والنقدية و غيرها.
 - 3- كتب الأخبار غير متخصصة، ولا تشمل على فن من الفنون، وإنما تعالج فنونا شتى وفي مجالات مختلفة.
 - 4- كتب الأخبار تغذي العقل وتنمي الفكر، وترهف الحس.
 - 5- كتب الأخبار تدخل السرور والمرح، و الفكاهة على نفس القارئ، بما تحويه من طرف و ملح و نوادر.
 - 6- كتب الأخبار غايتها القصوى إكساب المتلقي ثقافة غزيرة، وعلما واسعا.
 - 7- مدار الدراسات قديما وحديثا يتكى على هذه النوع من الكتب، فما من بحث، أو دراسة إلا واغترفت من بحر علمها، واقتنصت من شوا ردها التي يسهر الخلق جراها و يختصم.
 - 8- حفظت لنا جانبا ضخما من التراث العربي الذي ظل ردها من الزمن معتمدا على الرواية الشفهية و الذاكرة.
- وعلى الرغم مما قيل عن طريقة هذه الكتب ومنهجها الاستطرادي الطاعي عليها، إلا أن أصحابها استطاعوا أن يحققوا الغايات التي سطورها، وجعلوا المتلقي مشدودا إلى هذه المصنفات يكرع منها في كل زمان و مكان، ولا مندوحة له في الاستغناء عنها، ففيها الزاد، والذخيرة، وفيها المتعة والفكاهة و الملحة والطرفة. فهي مصادر لا غنى للدارس، أو الباحث عنها، فهي الموارد التي يرجع إليها في كثير من الدراسات الأدبية والنقدية.

الهوامش:

- 1 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ج 1 ، ط 10 ، (د ت) ، ص 309.
- 2 - نفسه، ص 320
- 3 - المرجع نفسه، ج 1، ص 203
- 4 - الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (ب ط)، (د ق)، ج 1 ص 81
- 5 - الجمحي، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ط) 1969، ص 10
- 6 - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 1، ص 321.
- 7- المسعودي، مروج الذهب و معادن الجواهر، دار الأندلس بيروت لبنان، ط 5، 1983 ج 2، ص 40.
- 8 - ابن النديم ، الفهرست، دار التونسية للنشر، تح د. مصطفى الشويخي (ب ط) 1985 ص 49.
- 9 - حمروني الطاهر، منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر (ب ط) 1985، ص 16
- 10 - المرجع نفسه، ص 16
- 11 - ابن خلدون، المقدمة، دار العودة بيروت، (ب ط)، (د ت)، ص 460.
- 12 - الجاحظ، عثمان بن بحر، الحيوان ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، مج 1، تح. يحي الشامي، ط 3، 1990، ص 9.
- 13 - المبرد، أبو العباس، الكامل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ت عبد الحميد هندواي، مج 2، ط 1، 1999م، ص 293.
- 14 - أحمد أمين، ضحى الإسلام ج 1 ص 390.
- 15 - المسعودي، مروج الذهب، ج 4 ص 109.
- 16 - الجاحظ ، عثمان عمر بن بحر، البيان و النبيين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان (ب ط)، ج 3 ص 14 م.
- 17 - م. نفسه، ج 1 ص 2، دار المكتبة العلمية.
- 18 - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 1، ص 350.
- 19 - ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، 1960، ط 3 ص 166
- 20 - أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 1، ص 392
- 21 - المرجع نفسه، ج 1 ص 392
- 22 - عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1982 (ب ط)، ص 318.
- 23 - المرجع نفسه، ص 318
- 24 - المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 344.
- 25 - الجاحظ، الحيوان ج 3، ص 7.
- 26 - م. نفسه، ج 3 ص 7.

- 27 - عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعجم و الأدب والتراجم، منشورات جامعة حلب، ط5 ، 1977، ص87.
- 28 - الجاحظ ، عثمان عمرو بن بحر ، البيان و التبيين، ج1، ص43، 42.
- 29 - الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص43.
- 30 - م.ن، ج1، ص168.
- 31 - الجاحظ، البيان والتبيين، مج1 ص7
- 32 - م، ن، مج 2، ص50.
- 33 - م، ن مج 2، ص6.
- 34 - البيان و التبيين مج1، ص67
- 35 - م. ن، مج1، ص67
- 36 - م. ن، مج1، ص76
- 37 - م.ن، مج1، ص137
- 38 - البيان والتبيين، مج3، ص28.
- 39 - م ن مج 1 ص83
- 40 - عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص317
- 41 - أبو هلال العسكري، الصناعيين، ص13.
- 42 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، (تح)، د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3، 1388 هـ 1968م،